

عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم . ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال (١٦٣) .

النموذج الثاني من التخييل الذي يأتي في التشبيه يتمثل في التعلق ببعض الأوصاف السطحية الظاهرة التي قد يشترك فيها أمران ، واعتادها أساسا للحكم بحسن المشبه أو قبحه تبعاً لوجودها في المشبه به مع أنها في الحقيقة ليست سبب الفضيلة أو النقيصة وذلك كما نرى في قول البحرى :

وبياض البازيُّ أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب  
فالشاعر يعتمد في تجميل الشيب وتفضيله على الشباب على مشاركة المشيب للبازي في بياض لونه ، واشتراك شعر الشباب للغراب في سواد اللون . ولما كان البازي آتق في العين وأبهى في المنظر من الغراب فكذلك الشيب الذي يشاركه في لونه ، والأمر كذلك بالنسبة للشباب مع الغراب .

فإذا حققنا المسألة انتهينا إلى أن عنصر اللون بنوعيه الأبيض والأسود لا دخل له على الإطلاق في الإعلاء من شأن البازي والإزراء بالغراب ، وإنما يرجع الأمر بالنسبة للبازي إلى قوته وسطوته ، ومكانته الرفيعة في مملكة الطيور ؛ ويرجع الأمر بالنسبة للغراب إلى ما استقر في وجدان الناس حياله من تطير وتشاؤم عبر عصور التاريخ . وبالمثل فإن حب الناس للشعر الأسود لا يرتبط أصلاً بخصوصية اللون بل إلى ما يدل عليه عادة من رونق الشباب ونضارته وفتوته وإقباله على الحياة ، على حين ينبع بغضهم للشيب مما يوحى به من عكس ذلك ، وهو إدبار عصر الشباب وانقضاء متعه وصبواته .

والواقع أن النموذجين السابقين من التشبيه يقتربان من بعضهما اقتراباً شديداً ، فكلاهما ضرب من التخييل الذي يقوم على القياس الخطأ ، وهو قياس لا تخضع مقدماته لحكم العقل ومقرراته المسلمة . ولقد لخص عبدالقاهر الأساس

---

(١٦٣) أسرار البلاغة ص ٢١٦ - ٢١٧ .